الأديب ، بناء على تكوينه ومزاجه الخاص ، وخضوعاً لروح العصر والإستجابة للواقع المتغير ، وقد يختفي اهتمام ، ويبرز اهتمام جديد ، ولكن ذلك لاينفي «ذاتية» الأديب في تعامله مع الوجود بكل عناصره ، حسب درجة هذا التعامل وحرارته .

وحين نترك للأدب هذا الإختيار ، فإنه بطبيعته أميل إلى التعبير عن ميادين العلوم الإنسانية وأجواء الأفكار والمشاعر والأحاسيس ، وإن كانت العلوم التطبيقية نفسها ، كما قلنا ، يمكن أن ينفعل الأديب بظاهرة من ظواهرها فتصبح بالنسبة له عالماً من الأفكار والمشاعر والإحاسيس ، ولكن التاريخ العام للفنون والآداب حتى في العصر الحديث ، عصر العلم والكشوف الباهرة في ميدان العلوم ، يظهر بأن الأدب لم يتجاوب - إلا بحدود - مع هذه العلوم التجريبية البحتة . وكان ميدانه الألصق بطبيعته ميدان العلوم الإنسانية كما سنتحدث عنه .

وقديماً كانت الفلسفة من بين النشاطات الفكرية للإنسان التي أخضعت الأدب والفن لتوجهاتها وفهمها للكون والوجود ، مع فارق بين الفلسفة المتولدة من ظروف ومراحل معينة من التاريخ ، وبين الفلسفة التي استوحت أطروحاتها من العقائد الدينية السماوية ، المهم أنها كانت تلقي تأثيراتها وظلالها على النظريات النقدية والنتاجات الأدبية بألوانها المختلفة على السواء .

ونستطيع القول بأن التأثير كان إيجابياً في بعض المراحل وسلبياً في مراحل أخرى ، نقول هذا انطلاقاً مما قررناه سابقاً ، وهو مقدار ماتخضع له الفلسفة من تطويع للعالم الداخلي للأديب أو الفنان ، بمعنى أنها تصبح مادة إثراء لأدبه حين يطوعها لوجدانه وإحساسه ، أماحين يصبح أسيراً (لقواعدها) ومقولاتها النظرية ، فإنه سيكون فيلسوفاً بالدرجة الأولى ، وفناناً أو أديباً بالدرجة الثانية .

على العكس من الحالة التي تكون فيه الفلسفة مادة لتوسيع أفق الأديب وتعميق إحساسه بالوجود ، وتوسيع نظرته إلى هذا الوجود ، فإننا سنكون إزاء أدب يثري الحياة الإنسانية ، ويصبح ثمرة من ثمارها العليا .

وقد وجدت الحالتان معاً في التاريخ الإنساني . . . فوجدنا أدباً عبارة عن